نظرات عابرة فى المجتمع المصرى

(٢)

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

المستشار الملكى ، ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

نلتمس فى حديثنا " نظرات عابرة فى المجتمع " ، فالحديث ذو شجون ، والمجتمع المصرى ملىء بالعبر ، ومنها يستوحى المصلح مناحى الاصلاح ، ويستهدف المثل الأعلى لمجتمع توافرت له مقومات السلامة والكمال ، ولتكن شئون المرأة المثقفة ورسالتها فى الحياة أول وآخر ما يعنينا من هذه النظرات . فالمرأة قوام المجتمع ودعامته ، وبانيته وهادمته ، يضطرب بها الأمر أو يستقيم ، ويضل بوحيها الرجل أو يهتدى ، وثقافتها تؤهلها لرسالة أسمى فى الحياة ، بل ترد الى رسالتها الطبيعية ، تؤديها بعون من هذه الثقافة لتنشئ بها الجيل ، وتصون بها الطفولة ، وتصد الرجولة بفيض من روحها وسلامة تفكيرها ، إذ لم تعد وظيفة المرأة المثقفة فى هذه الحياة مجرد الولادة والحضانة والعيش المهمل فى المنزل كما يتفق ان يكون ، بل لقد أصبحت مهماتها كثيرة متشعبة ، ورسالتها اجل وأسمى وابعد أثرا فى الحياة . فهى العنصر الفعال فى تكوين الأبناء فى مراحل الطفولة ، والإشراف عليهم فى مراحل المراهقة والشباب الباكر ، وهى بعد ذلك كله التى تلهم الرجل وتسدد خطاه ، من طريق مباشر أو غير مباشر ، فى شتى وجوه نشاطه ومسالك حياته .

واو ألقينا نظرة على الطفولة فى مصر من أية ناحية ، لمائتنا مشاكلها الخطيرة . فهى من الناحية الصحية على ما نرى من سوء الحال ، وهى من الناحية الثقافية تستوجب الرثاء والاشفاق ، فاننا ما نزال فى دور الاستعداد لنظام يفرض قسطا كبيرا من الثقافة على العامة فرضا ، وما نزال دور التعليم تضيق بالواقدين عليها . فاذا وجهنا النظر الى الناحية الاجتماعية ألفينا الفقر يشيع فى كل جانب ، حتى أن مورد الأسرة بين سواد الشعب ليبلغ من الضآلة حدا لا يكافىء الحياة البدائية ، فضلا عن الحياة البدنية والتمتع ببعض الطيبات . فالشعب فى مجموعه سير كالجسم المفلوج يمشى صاحبه بشق مائل ، وليس يكفى أن يكون لدينا مئات أو ألوف من الأغنياء والمتعلمين ، فالعبرة فى الأمة بالسواد الأعظم ، وقد أوصى الإمام على كرم الله وجهه أحد ولاة مصر بوصية يقول فيها ما معناه : " يجب أن يكون عمادك العامة من الأمة وعونك لهم ورفقك بهم . لا تصرفك عنهم شؤون الخاصة ، فإنهم قلة ، عبئهم كبير ونفعهم قليل " . فعلينا إذن ، حين نتدبر شؤوننا الاجتماعية ، أن نقيس الأمور بمقياس سواد الشعب وعامته ، أولئك هم درع الوطن وأساس نهضته ، وهم إذا خذلوا الوطن فى معركة الحياة والمجد فليس للوطن غيرهم من نصير . فلننظر إذن فى أى محيط تنشأ الطفولة المصرية ، وفى كفالة أية علل اقتصادية واجتماعية وصحية تنمو هذه الطفولة البائسة ، وتستعد لاحتمال تكاليف الحياة . فهى تنشأ وتنمو فى ذلك المحيط الذى خيمت فيه

الجهالة ، وبين تلك العلل . فمن الطبيعى أن تضعف مقاومتها الجسمية والعقلية والروحية ، ثم ينتقل هذا الضعف كله الى مرحلة الرجولة فلا يرجى لها من خير .

لذلك كان لزاما على العاملين المخلصين أن يخصوا الطفولة بعناية شاملة متصلة ، لا يضنّ فيها بجهد ولا مال ، وان يجعلوا هذه العناية غير مقصورة على مرحلة دون مرحلة ، فلكل مرحلة إعدادها . ولكل مرحلة أثرها فى تهيئة الطفل للمرحلة التى تليها .

وكذلك يجب أن تكون العناية عامة للأطفال جميعا ، لا فرق بين فقير وغنى ، ولا بين مجرم وبرئ ، فالأصل فى الطفل البراءة والنقاء ، وما شائبة الاجرام إلا عرض من أعراض البيئة وظروف الحياة والعوامل المحيطة بالنشأة . فاذا استطعنا أن نواجه مشكلة الطفولة بكل ما نملك من وسائل ، طمعنا فى أن نخرج من هذه الطفولة البائسة الضعيفة طفولة قوية قادرة ، تتنفس فى جو نقى ، وتتحول مع الزمن الى رجولة كاملة . ولكن من الذى يستطيع أن ينهض بالطفولة هذه النهضة المنشودة ، ويقوم برعايتها ماديا وروحيا ؟ لا يختلف فى الجواب اثنان ، وليس للمسألة كما يقولون وجهان ، فالذى يستطيع ذلك ولا يستطيعه سواه هو المرأة المثقفة . ومن ثم وجب على المفكرين فى إسعاد الطفولة إعداد المرأة لهذه الرسالة النبيلة . واذا قامت المرأة المثقفة بهذه المهمة وحدها فقد أدت رسالتها كلها ، واذا استطاعت النهوض بهذا العبء فقد حق علينا أن نضع على رأسها إكليلا من المجد يتوج رأسها مدى الحياة ، ويجمع كل أسباب العظمة والفخار . فميدان الطفولة ميدانها ، وهى فيه ملكة متوجة لا ينازعها فيه منازع . فهل أعد فتياتنا المثقفات أنفسهن لهذا الملك العريض الذى هيأته لهن الطبيعة ؟ لقد ذهبن يزاحمن الرجل فى ملك زائف ، بجعلن يصحن بما شئنه طلب المساواة . وليس من شك فى أن المرأة والرجل فى الحقوق والتكاليف سواء ، ولكنى أعيب المرأة تنصرف عن قداسة رسالتها الى تطالب بالاشتراك فى أعباء الرجل التى لا يغبط عليها . وأى مهمة أنبل وأعظم من أن تضع على عاتق المرأة سلامة الجيل وتكوين شعب مستنير قوى الروح قادر على الكفاح؟ أيقاس ذلك بالاشتراك فى بعض مظاهر السلطة أو شغل بعض الوظائف العامة وغيرها ، مهما يكن لها من بريق ولوقعها من طنين ؟ ويقينى أن المرأة حين أنعم الله عليها بروح تضحية وفيض عاطفة أراد أن يهيئها لتلك الجلى خير تهيئة ، ثم أراد للرجال أن يسخروا للنهوض بالجانب الآخر من الحياة ، وجعل للمرأة جانب المعنويات والخصائص الاجتماعية حتى يتألف من كلتا الرسالتين مزاج يحقق للانسانية متعة الجسم ومتعة الروح .

والمرأة المصرية الآن تقبل على الثقافة ، وتستزيد منها ، ولكن يعز علينا وهى فى مفترق الطرق أن تضل الطريق القويم الذى يؤدى الى الغاية ، ويكتب لها الخلود فى سجل الاصلاح الجدى . والمساهمة الحقة فى نهضة البلاد ، فها نحن أولاء نعانى تفكك الأسرة وانحلالها ، ولا خير فى جهود تبذل لرفع مستوى الحياة الاجتماعية ما دامت الأسرة متداعية .

وسر هذا التداعي أن الجالسة على عرش الأسرة لم تعد إعدادا كافيا، أو لم تنصرف انصرافا كليا الى تدبير أمور مملكتها ، فتهمت عملها فى البيت على أنه عمل مادى من أدنى الأعمال، فعز عليها أن تكون ثمرة ثقافتها العالية تربيـة طفل أو تدبير بيت أو رعاية أسرة ، ولم تجد شيئا من ذلك مواتيا لآمالها الكبار من التعليم والتثقيف . وفى الجانب الأكبر من الشعب أم جاهلة منصرفة الى بيتها ، ولكنها إن عنيت بطفلها أضرت به ؛ فهى الصديق الجاهل فى المثل المأثور ، هى على رحمتها و إشفاقها تقتل الطفل وتشقيه من حيث ترجو سعادته وخيره ، وتعكر صفو البيت من حيث لا تدرى ، وأما الأمهات المثقفات فأغلب الظن أنهن ، كلهن أو جلهن ، قد تركن أطفالهن وأقبلن على سمرهن و متعهن ، وشغلن وقتهن بالانصراف الى التفكير فى المسائل العامة ظنا منهن أن فى ذلك رفعـة لشأنهن ، فعاد الرجل فألفى بيتـه خرابا وأسرته منحلة ، وهكذا رأينا الأسر تعرض فى الحدائق والمسارح و الملاهى والمحافل لا على سبيل النزهة والاستجمام والرياضـة ، ولكنه نظام حياة مستمر متصل لا يعرف لحياة الأسرة كيانا ، ولا يدرك لها معنى . وإنى لا أجهر بقولى هذا راغبا فى رد المرأة الى الصفوف المنتظمة ، أو مستكثرا عليها ما للرجل من حقوق ، فقـد أعلن الإسـلام جهرة ومن صميم جزيرة العرب ثورته على التقاليد الجائرة فى شأن المرأة ، وأقر لهـا من الحقوق ما حقق لهـا المساواة كاملة وصان كرامتها ، فقال الله فى محكم التنزيل : "ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف" ولكنى أخشى ، وقد خرجت المرأة من حجابها واجتـازت مراحل الثقافة ، أن تقتضى الرجل واجبات لا يستطيعها ، فإنهـ تتزداد مطالبها وتكثر أعباؤها وترتفع أمانيهـا بارتفاع مستوى تفكيرها واتضاح أغراضها ، فترهق الرجل بدلا من أن تعينه ، وتكون عبئا عليه بدلا من أن تشاركه فى احتمال العبء . وللمرأة فى ذلك كله نظرها ، فقـد خرجت الى النور الساطع بعد أن عشت فى الظلمة الحالكة خلال قرون ، ولذلك معقدات من اختلال التوازن فى التفكير والمطامع والأهداف . فوجب علينا أن ننبهها الى حقوقها ، على أن تقتضاها بالمعروف الذى أشار اليه القرآن فى حكمته البالغة . ولقـد كان من الطبيعى للمرأة وهى تواجه بحر النور والحرية والمساواة أن ترهى وأن يطغى عليها التطرف ، فترهق الرجل بمطالبها وتفكيرها وأمانيها وأهدافها .

لذلك وجب أن نناشد المرأة أن تعنى فى نهضتها بأمرين حيويين :

الأول — أن تعمر البيت ، البيت الذى يستطيع أن يساير النهضة المرجوة ، وأن يكفل لنـا تنشئة أطفال فرجال يصلحون للمستقبل ، ويستطيعون الاضطلاع بتبعاته الجسام ، ولا بد أن تتجه المرأة الى هذا البيت المنشود لا مسخرة ولا مكرهة ، ولكن طيعة راضية مؤمنة بأنه طريق الكرامة والسلامة والإنشاء والتعمير .

والثانى — أن تكون عونا للرجل على احتمال أعباء الحياة ، وأن تكون فى ذلك عاملا إيجابيا لا سلبيا ، فيشعر الرجل حين يختار الزوجة المثقفة أنه استعان بعضد يشـد به أزره ، واستقبل الحياة بنصير يقوى به ظهره ، فإذا أنسـل أطفالا ضمن لهم نشأة كريمة فى الجسم

والعقل ، واذا عملت به أحداث الدهر ألفى بجانبه قوة تنفخ فيه روح الايمان وتمده بعتاد الكفاح وتزوده بمناعة يجتاز بها العقبات ويتغلب بها على الأحداث .

والواقع أن الرجل فى حاجة الى المرأة التى تكون مستودعا لأماناته ، وعونا له فى ملماته ، فهى التى تتعهد أطفاله ، وتحفظ عليه ماله ، وتصون عرضه ، وتبث فيه وفى عقبه روح التضحية والجد والمثابرة والطموح . والمرأة حين تحتمل هذه التبعات الخطيرة تصبح فى شغل شاغل عن كل شىء . واذا قيل بأن النساء فى مصر يشكون الفراغ فذلك لأنهن لم يؤدين رسالتهن على أكملها ، ولو أديتها لاستنفدن وقت العمل ووقت الفراغ على السواء .

إن المرأة إذا لم تلد قامت على كواهلها مهمة عون الرجل بعقلها وبعاطفتها ، واذا حملت فمهمتها أكبر وأخطر ، هى مسئولة من جنينها منذ تحس بأن الله وضع كلمته بين جنبيها ، فان نوع حياة الأم له أعظم الأثر فى تكوين الجنين وتنشئة أعصابه . واذا وضعته كان عليها أن تتدرج معه فى نموه وتفكيره واحساسه ، فتغذيه من روحها وتكفل له السلامة بفضل رعايتها ، وذلك يتطلب منها جل وقتها ومعظم جهدها . فإن كان هذا هو شأن طفل واحد ، فما حال الأم يكون لها طفل تلو طفل ؟

والحق إن أثر المرأة فى بناء البيت وبناء الجيل أثر لا يبلغ الواصف كنهه ، فهى تؤثر سافرة أو متحجبة ، ظاهرة على مسرح الحياة أو خفية من وراء الستار . والرجل حين يلقى من زوجه تشجيعا وعونا يمضى الى غاياته وأهدافه قدما ، يحدوه التوفيق الكامل فى عمله وتفكيره .

فواجبنا أن نعنى بتوجيه قوى المرأة الى الخير ، وأن نجنبها ما يصرفها عن مهمتها الأولى ويحرف بها عن أداء رسالتها السامية ، وان نجعلها تقبل على البيت عالمة بأنها تؤدى واجبا وطنيا لا يستطيع تأديته سواها .

وانى لمستبشر بنهضة الفتاة ، وأشعر أن اضطراب خطانا فى توجيه المرأة منذ عشرين عاما كان مبعثه الجنوح إلى فكرة خاطئة ، والحمد لله على أنها قد بدأت تأخذ طريقها القويم . وأمامنا طائفة من خريجات الجامعة اللواتى آثرن حياة الأسرة والانصراف الى واجبات الزوجية والأمومة ، فقد استطعن أن يوفقن بين ثقافتهن وحقوقهن وواجباتهن توفيقا لا قصور فيه ولا طغيان ، فاستقبل البيوت وهيأنها تهيئة صالحة لتنشئة ثمرات طيبة وتكوين أسر رفيعة .

ولا يزال الوطن فى حاجة الى نساء مثقفات يتوافر لهن الخلق الكريم ، لينهضن بأعباء أسر يظلها التضامن الحق ، حتى تعتز مصر بأن النهضة تقوم على أكتاف المرأة المثقفة الكريمة الخلق السديدة المنحى .

فليكن أيتها الفتيات المثقفات أوجه القول ، سائلا لكن التوفيق الكامل فى أداء رسالتكن ، التى أهيب بكن أن تؤدينها مخلصات مؤمنات مضحيات لوجه الله والوطن وفلذات أكبادكن .

محمد العشماوى
المستشار الملكى